ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

تقدير الخصوبة وتمجيد الذكورة في المغرب الأقصى
خلال العصر المريني

د. محماد لطيف

أستاذ التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

شكلت الخصوبة والمواقف الممجدة للإنجاب والقيم المحبذة للإكثار من النسل من أهم القيم الموجبة للتقدير عند معظم مغاربة العصر الوسيط عامة، والعصر المريني على وجه التخصيص؛ فقد افتتنوا بالمرأة الولود، وأعجبوا بالرجل الفحل المتباهي بقدراته الجنسية، واعتقدوا في قيم الكثرة والتعدد، فقدروا الأسرة الممتلكة لأدوات الإنجاب، والزوجين الكثيري النسل. لكن هذه القيم الاجتماعية لا تكتمل إلا بالحصول على الوليد الذكر، مادام أن مكانة الأسرة داخل المجتمع رهينة بما تنتجه من الذكور. لقد أسهمت كثافة الترسبات الذهنية التي خلفتها سيادة العقلية المشجعة على الإنجاب والمقدرة لخصوبة المرأة، في مختلف أشكال السلوك والقيم الأخلاقية والممارسات والعادات الجماعية والفردية لدى مختلف أسر المغرب الأقصى خلال العصر المريني، وعلى هذا الأساس تفشت في شأنها أشكال من السلوك والقواعد الأخلاقية، والتمثلات الرمزية التي وجهت مشاعر الناس واختياراتهم الاجتماعية. في هذا الخصوص شاعت الكثير من الوصفات المقوية للقدرات الجنسية لدى الرجال، والعادات المتوسلة للإنجاب والخصوبة لدى النساء. إن هذا السياق الاجتماعي الذي ربط قيمة المرأة ومستقبلها الزواجي بقدراتها الإنجابية، جعل من الرغبة في الحصول على الولد عند الزوجات هما استحوذ على تفكيرهن؛ فالتوجس من عدم الإنجاب، أو الخوف من الإصابة بما يقلل من الذرية، دفع بالعديد من النساء إلى سلك سبل متعددة، من الالتجاء إلى المشتغلين بالسحر والتنجيم والاستعانة بالتمائم والرقى والتعاويذ، إلى الاستنجاد والتعلق بكل من توسمن فيه الصلاح، وبفعاليته في إزالة العقم والتخلص مما قد يعيق الحمل.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٥ مايو ٢٠١٥

تاريخ قبول النشر: ١٦ سبتمبر ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

المغرب الأقصى، الغرب الإسلامي، العصر المريني، تاريخ الذهنيات، الإنجاب والذكورة

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0045095

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محماد لطيف، "تقدير الخصوبة وتمجيد الذكورة في المغرب الأقصى خلال العصر المريني".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص١١٥ – ١٢٣.

مُقَدِّمَةٌ

تُعَدّ الأبحاث المرتبطة بدراسة تاريخ الذهنيات والسلوكات الاجتماعية من القطاعات البحثية الحيوية التي ما فتئت توسع من دائرة اهتمامات أخصائيي الزمن، كما تعتبر محطة إستوغرافية جذبت إليها حقولا تاريخية كثيرة ومتنوعة. وفي هذا الإطار تألق عدد هام من المؤرخين الغربيين الذين أفردوا أبحاثهم لتتبع التحولات الكبرى في مختلف حقب تاريخ المجتمعات الأوربية، مراهنين في ذلك على ما جد من مقاربات ومناهج، وعلى ما برحت تقدمه أرشيفاتهم من معطيات دقيقة.

وبالقدر الذي لا يستطيع فيه أي باحث في التاريخ أن يخفي إعجابه بالمراحل الكبرى التي قطعها المؤرخون الغربيون في البحث في قضايا التاريخ الاجتماعي، وكذا بالنتائج والإنجازات المهمة التي تحققت في دراسة تاريخ الذهنيات والسلوكات الاجتماعية، بالقدر نفسه يبدي اندهاشه أمام التواضع الكمي والمعرفي البيِّن لهذا الميدان في الدراسات التاريخية الخاصة بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط عامة، وخلال الفترة

المرينية على وجه التخصيص. فما دُبج من دراسات في تاريخ العقليات في المغرب الأقصى خاصة، حسب علمنا، يظل في حكم النادر، ورهين عثرات البداية، ولم تتجاوز ثمراته العلمية مباحث وفصول مقتضبة ضمن دراسات عامة في التاريخ الاجتماعي.

لا يخامرنا شك في أنّ حقل تاريخ المغرب الاجتماعي وتحديدا تاريخ العقليات، هو حقل واعد وخصيب في أمس الحاجة إلى البحث والاستقصاء من وجهة نظر المؤرخ، وفي ذات الآن مسلك شائك ومعقد؛ شائك بسبب الصعوبات المنهجية التي يثيرها، ومعقد بسبب ندرة المعلومات وتشتّت المتوفر منها؛ فالمتون النصية التقليدية وقلم التدوين المشدود إلى مراكز السلطة البارع في وصف الحروب والأحداث الصاخبة والوقائع المدوية، لا توفّر المعلومات اللازمة للتوسّع في مثل هذه المواضيع، لهذا كثيرا ما يضطر الباحث إلى الاستنجاد بوثائق دفينة، على غرار مدوّنات الفقه والفتاوى، ومصادر رديفة من مثيل مصنفات المناقب والتصوف، ومذكّرات الجغرافيين والرحّالة، وكتب التطبيب والاستشفاء، والأدب، ومصنفات الأمثال الشعبية، وغيرها من أنواع المظان التي شكلت مادتها التاريخية ثقوبا يمكن النفاذ عبرها للخوض في قضايا من عالم المسكوت عنه في تاريخ الذهنيات بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني.

انطلاقًا من هذه النظرة المؤسسة، نتوخى من خلال هذه المقالة القصيرة، تقديم مساهمة علمية لفهم جانب من الأفكار الموَجِّهة للمجتمع وعقليات الناس وسلوكياتهم ومواقفهم في المغرب الأقصى زمن المرينيين، بالتركيز على جوانب متصلة بمكانة الإنجاب، وخصوبة المرأة، وتمجيد الذكورة، محاولين تجاوز الإطار الوصفي المحض، عن طريق ربط القضايا المطروقة بسياقها العام، والعوامل الفاعلة داخل المجتمع، وتباين البيئات الحضرية والبدوية.

أولاً: الرغبة في الولد وسيادة عقلية الإنجاب

لاقت المواقف الممجدة للإنجاب، والقيم المحبذة للإكثار من النسل، تأييدا كبيرا وتجاوبا تاما لدى مختلف شرائح مجتمع المغرب الأقصى خلال العصر المريني. ولا غرو، فقد عد الزواج من الأمور المرغوب فيها التي حظيت بمكانة اجتماعية عالية[1]، لكونه الوسيلة المثلى لإنجاب الأبناء، وتحقيق الكثرة، وتعزيز طموح الامتداد الذي راود معظم الأزواج[2]. وقد ترسخ على ضوء هذه القيمة الاجتماعية للزواج أن أضحى الحصول على الولد إحدى أهم بواعثه وغاياته[3]، وأن أصبح الاقتران بالمرأة الولود على رأس معايير اختيار الزوجة[4]. ولعل أبلغ الإشارات دلالة على أن تقدير الخصوبة والإنجاب كان من الأفكار الشائعة بين غالبية الناس، وأهم القيم المسيطرة على ذهنيتهم في ذلك العهد، حض الأمثال الشعبية المتداولة على الإقبال على المرأة الولود[5]، ونظرتها الإيجابية لقدرات الزوجة الإنجابية، والمرأة الكثيرة الأولاد.[6]

والأكيد أنها مواقف مؤيدة لما كان يبثه فقهاء الحقبة مدار البحث من أفكار مشجعة على النسل والكثرة. ففي معرض حديثه عن الخصال الحميدة للزواج، أشار ابن الحاج العبدري[7]، إلى أن بالزواج يكثر النسل، ويبقى الذكر والأثر، "فإذا ظهر المولود فقد كثر به العدد، ورفع به الذكر إن كان ذكرا، والأثر إن كان أنثى". أما أبو عبد الله ابن مرزوق فحث على نكاح المرأة البكر، تحت حجة أنها المؤهلة للإنجاب ومضاعفة الذرية بشكل مستمر فـ"الولد مع البكر أرجى كالأرض المجمة بالنسبة إلى ما يلقى فيها"[8]. وفي الاتجاه نفسه اجتهد العديد من العلماء من خلال كتاباتهم في تبيان طرق الممارسات الجنسية التي ينتج عنها الولد، وأهم الوسائل الواجب اعتمادها أثناء "الجماع" لتتحقق غاية الإنجاب[9]. والواضح، أن هذه المواقف المحبذة للإنجاب والنسل، قد تعززت مكانتها في الذهنية السائدة واستحوذت على تفكير فئات المجتمع، لانسجامها وتلاؤمها مع الأفكار الدينية الراسخة التي تدعو المؤمن إلى الإكثار من السواد، وتشجعه على تكريس العملية الجنسية من أجل التناسل[10]. لهذا ليس غريبا أن ينظر معظم فقهاء الفترة المرينية وعلمائها، إلى كبر حجم الأسرة، وأطفالها الكُثر على أنها نعمة من الله، وزينة الحياة الدنيا، وإمداد للمجتمع بعناصر استمراره.[11]

أمام هذه القيمة الاجتماعية التي حظي بها الإنجاب، والتي دعمتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لا يعدم الباحث بعضا من المواقف المدعمة للعزل في الجماع، وفتاوى ترخص لإفساد الحمل وإسقاطه. فقد أجاز القاضي أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣ هـ/ ١١٤٣م)، العزل عن الزوجات من دون قيد ولا شرط، وفي الاتجاه ذاته أبدى الفقيه عبد الله العبدوسي (ت٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥م)، تحفظًا واضحًا من الإنجاب، حين اشترط العزل في النكاح فرارا من الولد بدعوى "فساد الزمن"[12]، وأقر ابن الخطيب بوجوب الإجهاض "في بعض الجواري الصغيرات الأرحام والضيقات ومن تحمل قبل الافتضاض، ومن يتوفر الخوف من هلاكهن عند الولادة قصدا".[13] وندد الونشريسي في بداية القرن العاشر الهجري بما عرف عن بعض تجار الإماء من سقيهن بعض الأدوية التي ترخي الطمث عند إمساكه فيسيل المني معه وتنقطع الولادة.[14] لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نستغل تلك الشروط والتحريمات التي أصدرها الفقهاء، لنستنتج أن الممارسة الوقائية من الحمل كانت من الإجراءات المألوفة والعادية. فالواضح أنها ارتبطت بأسباب خاصة كما تهم حالات محددة ومعزولة.[15]

بلا شك أن هناك أساليب لمنع الحمل كانت معروفة وتصفها كتب الباه، وترد ضمن بعض النوازل الفقهية، لكن من الراجح أن استعمالها لم يكن منتشرا بتلك الصورة الكبيرة التي قد توحي به هذه المتون والإفادات الواردة في هذا الشأن. والغالب على الظن أن الأزواج لم يحاولوا التحكم في الممارسة الجنسية وبصورة جدية لمنع دورها الإنجابي.[16] ومهما كان الأمر، فالظاهر من خلال كافة النصوص المتاحة، أن مسألة تقدير مغاربة العصر المريني

للخصوبة وتمجيدهم للإنجاب، خضعت لعدة اعتبارات اقتصادية واجتماعية. فقد اعتقدوا اعتقادا جازما بأن ثروة الأسرة وقوتها ترتبط ارتباطًا وثيقًا باتساع حجمها، وكثرة عدد أفرادها[١٧]. وعلى هذا الأساس اعتبروا المزيد من الأبناء بمثابة الحصن الذي يحمي الأسرة من غوائل العوز والحاجة، والأداة المثلى التي تؤمن الأيدي العاملة اللازمة لتوفير أسباب المعيشة، ومعاركة الظروف الصعبة.[١٨]

ومن الدلائل الموضحة للأهمية الاقتصادية للإنجاب، واعتبار الطفل أداة تثمير ومصدر رزق هام للأسرة، شهادة ابن الحاج صاحب كتاب المدخل[١٩]، حين قال بأن بالأطفال تحصل "كثرة الرزق، والاستراحة من التعصب والنصب، وهذا موجود، نشاهد بعض الناس يكون فقيرا ضعيفا تعبا من التكسب بعيدا من العلم وأهله إلى ذلك من الأحوال الناقصة، فإذا أحدث له مولود ظهر أمره وكثر خبره". وهي شهادة على ما يبدو، لا يمكن فصلها عن ظروف العصر، وهاجس تأمين الحاجات اليومية الذي ظل مهيمنا على فكر معظم الأسر[٢٠]. ولعل هذا ما يعضده قول ابن الخطيب[٢١]، عندما رأى أن الحاجة تشتد إلى الولد "للانتفاع به في أسباب المعاش"، وفي هذه العبارة ما ينهض حجة على ارتباط الرغبة في الولد بالواقع المادي.

وإذا كنا لا نشك في شيوع مثل هذه الأفكار والمواقف بالمدن، فالغالب على الظن أنها عمت البوادي بنسبة أكبر؛ ولعلها مسألة لا يمكن تفسيرها إلا بعد ربطها بالظروف المعيشية، وأحوال الحياة غير المأمونة في هذه المجالات[٢٢]؛ ولا غرو، فلما شكل أمر تطويع سبل المعيشة، وتحصيل أسباب البقاء أمرا حيويا بالنسبة للقبائل جميعها، سواء المعتمدة على الترحال[٢٣]، أو على الفلاحة[٢٤]، وكذا التي كانت تعيش على الغزو والسلب وموارد الحرب[٢٥]، فقد كانت ملزمة بحكم تنازع البقاء بالاحتفاظ على قوة كافية للاستحواذ على مصادر الحياة، وفي الوقت نفسه حمايتها من طوارق التعدي[٢٦]. غير أن لهذه القوة ركيزة أخرى أساسية، هي ركيزة العدد التي جهدت الأسر لتأمينها بالإنجاب والإكثار من النسل، والاستبشار بالذكور.[٢٧]

وإلى جانب ما لقيمة الإنجاب والإكثار من النسل من علاقة بتطويع أسباب المعيشة وتأمينها، فقد كان لارتباط موقع العائلة داخل نسيج القبيلة بامتلاكها لأدوات الإنجاب، واتساع قاعدتها بالأبناء[٢٨]، أن عدت الرغبة في الولد أهم الضرورات الاجتماعية الملحة التي راودت معظم الأسر البدوية. وحسبنا دليلا على ذلك ما ذكرته إحدى الروايات عن امرأة تدعى شمسى استفحل أمرها، وغلبت على قبيلتها بفضل أبنائها العشرة.[٢٩] وتظهر قيمة الإنجاب، وأهمية تكوين أسر واسعة كثيرة الأفراد، في التجاء البعض إلى الإقبال على الزواج المتعدد، واستيلاد الزوجات بشكل متكرر.[٣٠] وهذا ما تعكسه حالة عبد الحق بن محيو المريني، الذي أقبل على "خطبة النساء والتزوج طلبا للولد"[٣١]، بحيث تزوج أربعا من النساء أنجبن له أولادا "زاد بهم في قومه عزة ومكانة ومهابة".[٣٢]

وإذا أمعنا النظر في مضامين بعض النصوص الأخرى، اكتشفنا أن الرغبة في إنجاب الأطفال كانت تشتد لدى البعض من الأسر المهووسة بانعدام الخلف، على اعتبار أنهم الوسيلة المثلى لاستمرار الأسرة، والمحافظة على كينونتها. وهذا ما تشي به حالات أولئك الآباء الذين سعوا إلى الحصول على أولاد يحافظون على ذكرهم، ويحققون بعض الطموحات التي راودتهم؛ ذكر ابن مريم[٣٣]، أن والد عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف الحسيني (٧٤٨-٧٩٢هـ/ ١٣٤٧- ١٣٩٠م)، بشر به هو وأخوه عبد الرحمن (٧٥٧-٨٢٦هـ/ ١٣٥٦- ١٤٢٣م) في المنام، حيث "رأى قائلاً يقول له يزداد عندك ولد عالم لا تموت حتى تراه يقرئ العلم". وورد في رواية ليحيى السراج نقلها عن والده، "قال: سمعت والدي يقول: "دخلت يومًا قبل التزوج على الشيخ أبي موسى العجيسي (ت٧٠٥هـ/ ١٣٠٦م)، وفي نيتي أن لا أتزوج، فمس على ظهري، وقال: يا أبا العباس تزوج فها هم في صلبك، وفيهم من يحفظ القرآن، فتزوج وكان له جماعة من الأولاد، وحفظ ثلاثة منهم القرآن"[٣٤].

ومن المظاهر المعبرة عن سيادة عقلية الإنجاب، ذلك التصور الذي كان يحمله الرجل عن الفحولة، واكتمال الرجولة؛ إذ كان البعض من الرجال يتخذ من الحمل المتكرر عند زوجاتهم، وقدراتهم الجنسية، موضوعا للتباهي والتفاخر، وميزة من ميزاتهم. أشار ابن الحاج إلى أنه كان من شأن العرب أن يمتدحوا بقدراتهم الجنسية ويفتخروا بها، لأن ذلك دليل على قوة الرجل وصحة بدنه ومزاجه.[٣٥] ومن النماذج المدعمة لهذا التخريج في مجالات المغرب الأقصى خلال الحقبة المرينية، ما ذكره أحد مؤرخي البلاط[٣٦]، عن السلطان أبي الحسن المريني (٧٣١- ٧٤٩هـ/ ١٣٣١- ١٣٤٨م) حين ربط اكتمال ذكوريته وصحتها، بإقباله على الزواج واتساع ذريته واعتبر ذلك مفخرة من مفاخره.

ومن القرائن الأخرى الدالة على أن الرغبة في الولد كانت شديدة، وأن هاجس الإنجاب ظل مهيمنا على تفكير غالبية الأزواج، ما تزودنا به المصادر من إفادات تفصح عن حالات من الأسر، رغم ظروف العوز والفقر التي كانت تئن تحت وطأتها، فإن رغبتها في الحصول على الأطفال كانت رغبة شديدة[٣٧]. في هذا الصدد ورد ضمن إحدى تراجم الفترة المدروسة، أن رجلاً يدعى أبا علي بن أبي تاليت الهسكوري من جبل دمنات قدم يوما لزيارة الولي أبي محمد صالح في رباطه بآسفي، قال: فبينما هو جالس "قال لي: يا أبا علي ما رزقت ولدا إلى الآن، فقلت: لا والله. فقال لي: كثر الله تعالى ذريتك يا أبا علي، كررها ثلاثا، فارتعدت فرائصي من دعائه، وتغيرت خوفا أن أبتلى بكثرة الأولاد مع الفقر، فنظر إلي قد تغيرت،... فقال لي: يا أبا علي أترد على الله هبته وعطيته".[٣٨]

من الراجح وفق المعطيات المتاحة، أن الأسر الفقيرة كانت، في غالب الأحيان، أحوج من غيرها لهذا العدد الكبير من الأفراد، إلا أنه من الإنصاف القول، إن المزيد من الذرية ألقى أحيانا على الأسر المعدمة عبء ثقيلا خصوصا في أوقات الإزم؛ فكثيرة هي

العائلات التي تحدثت عنها المصادر طلت عاجزة عن تدبر الحاجات الضرورية لأعداد أفرادها الكُثر لتواضع قدراتها المادية والاقتصادية. لهذا لا غرابة أن نصادف نصوصا كثيرة عن آباء اشتكوا ثقل نفقاتهم الأسرية لكثرة عيالهم. من ذلك ما ذكره ابن عباد الرندي في إحدى رسائله[٣٩]، حين وصف حال واحد من أصحابه بـ "الزلط وكثرة العيال".[٤٠] وما ورد ضمن إحدى الروايات المنقبية عن إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون (ت٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م)، من أنه "عاش لم يملك دارًا ولا نخلاً، إنما يسكن بالكراء، ويأكل بالسلف والدين مع كثرة عياله".[٤١] لينطبق عليهم ما قاله بعض السلف: "إذا أراد الله بعبده شرًا، سلط الله عليه في الدنيا أنيابًا تنهشه، يعني: العيال".[٤٢] القول نفسه ينطبق على أحد الفاسيين الذي خلف "جملة من البنات"[٤٣]، وأيضًا على أحد البنائين الفقراء الذي قال عنه البادسي[٤٤]، ضمن ترجمة محمد الشريف الحسني، إنه مات وترك عيالاً دون معيل. وغيرها من النماذج التي تثبت أن تواضع الأحوال المادية والاقتصادية للأسر الفقيرة لم يثنيها عن الإكثار من الإنجاب.[٤٥]

واللافت للانتباه أن الشكوى من نفقات كثرة الأبناء امتدت إلى بعض أصحاب الثروة والجاه، بل أدت ببعضهم إلى الإفلاس والفقر؛ ومن الأمثلة المعبرة عن ذلك حالة خطيب جامع القرويين أبا الفضل محمد بن الخطيب المزدغي، الذي قال عنه صاحب المسند[٤٦]، أن النفقات المكلفة التي تطلبتها إعالة أولاده، اضطرته إلى صرف ما تحت يده من أموال الأوقاف والتركات والأيتام التي عين وصيا عليها. وفي الاتجاه نفسه، يقدم ابن الخطيب[٤٧] صورة معبرة عن حالة ابن مرزوق، عندما ربط بين قلة ذات يده وبين "كثرة الولد". كما أشارت رواية للسلطان أبي سالم المريني (٧٦٠ - ٧٦٢هـ/ ١٣٥٩- ١٣٦١م)، نقلها عنه المقري[٤٨]، أن ابن الخطيب نفسه انتهت به الأحوال إلى أن أصبح "سليب المال، كثير العيال".

ثانيًا: شيوع العادات المقوية لقدرات الرجل الجنسية وإمكانات المرأة الإنجابية

لا سبيل إلى الشك في أن سيادة الذهنية المحبذة للإنجاب، وسيطرة الأفكار المؤيدة للإكثار من النسل على الفرد منفردا وعلى الأسرة بمجموعها، جعل من العادات المتوسلة للإنجاب وخصوبة المرأة، وكذا الوصفات المقوية للقدرات الجنسية لدى الرجل، تعرف انتشارا واسعا، وإقبالا كبيرا[٤٩]. في هذا الصدد، تحفل عدد من مصادر الحقبة مدار الدرس، وبالخصوص كتب الجنس، بنصوص تفصيلية عن أهم الوسائل التي كان يُنصح بها الرجل لتقوية "الباه"، والطرائق التي يحصل بها "الجماع"[٥٠]. كما تتحدث عن الكثير من العادات التي أقبلت عليها بعض الجماعات بالغرب الإسلامي والتي من شأنها معالجة الضعف الجنسي[٥١]، وما قد يُبتلى به أحد الزوجين من أمراض وعيوب تحول دون تحقيق الإشباع في الجماع[٥٢]، وتصعب في اعتقادهم من الممارسة الجنسية السوية المؤدية إلى الإنجاب[٥٣]. فقد اقترح أحمد زروق على الرجل المُصاب بمرض العنة، أن "يكتب الفاتحة سبعًا، وسورة القدر خمسا وعشرين مرة في آنية، ثم يمحوها بماء الحمص الذي قد بات فيه ليلة، ويشربه ثلاثة أيام على الريق، فإن لم يجبه فليوكل أمره إلى الله تعالى فيما أصابه، فقد عزت الحيلة".[٥٤]

بالمثل شاعت العديد من العلاجات الشعبية التي اعتقد السواد الأعظم في نجاعتها لتقوية قدرات الرجل في الجماع. أشار الإدريسي أن سكان إحدى مناطق المغرب الأقصى كانوا يقبلون على نوع من الحجارة اعتقدوا في دورها في تهييج الشهوة الجنسية.[٥٥] وذكر ابن القاضي، أن من خصائص وادي الجواهر لدى الفاسيين، "أن من شرب من مائه على الريق يحرك شهوة الجماع"[٥٦]. وبالمثل شاع الاعتقاد بـ "الطب الروحاني" بحسب تعبير ابن المؤقت[٥٧]، فالتجأ العديد من الرجال، وبخاصة أولئك الذين حرموا من الإنجاب، إلى الصلحاء والأولياء للتبرك بهم، والتماس الدعاء منهم طمعا في العون على تحقيق آمالهم في أن يرزقوا أطفال. ذكر الماجري[٥٨] في هذا السياق، أن رجلاً من الأثرياء ملكته رغبة النسل، وكان كثير الزواج طلبًا للولد، فاتجه إلى الولي أبي محمد صالح الذي دعا له بأن يمنحه الله الكثير من الأولاد. وورد في كتاب إثمد العينين[٥٩]، أن واحدًا من أصحاب والد أبي العباس الزقاق قصد المتصوف عبد الرحمن الهزميري للدعاء أن يرزقه الله مولودًا ذكرًا. كما أشار المؤلف نفسه[٦٠]، أنه كان من الذين واظبوا على زيارة الأولياء والأضرحة والتمسح بأعتاب قبورهم، رجاء تيسير سبل الزواج قبل أن يتجه إلى أبي زيد الهزميري الذي كاشفه بما هجس في خاطره، وبما سيحصل عليه من أبناء.

ثالثًا: الزوجة وهاجس العقم

ومن جانب آخر، فلا شك في أن اتجاه معظم الأسر نحو الإكثار من النسل، أثر في واقع المرأة الزوجة؛ فإذا كان وضعها يتقوى أثناء فترة الحمل؛ فتحضى بمكانة متميزة، وبعناية لم تألفها من قبل الجميع الذين يتفانون في الاستجابة لطلباتها[٦١]، وخاصة زوجها الذي كان يزيد من اهتمامه بها، ويبدل قصارى جهده لتلبية جل رغباتها واشتهاءاتها[٦٢]، فإن ذلك كرس تلك الصورة التي تقدمها أداة للنسل، والجانب الذي تقع عليه مسؤولية الإنجاب. ويمكن تلمس ذلك من خلال النصوص التي تحملها مسؤولية تأخر الحمل، أو الفشل في الحصول على مولود.[٦٣] وإذا كانت النصوص لا تسعف في الكشف عن صورة المرأة العاقر، وأشكال التعامل معها من قبل الزوج وأسرته، فيخيل إلينا أنها كانت موضع امتهان واحتقار، فاللوم موجه إليها بالدرجة الأولى، حتى وإن لم يتأكد من عقمها[٦٤]؛ شفيعنا في ذلك تلك الحالات التي أدى فيها تأخر الحمل إلى الطلاق[٦٥]، وفي أفضل الأحيان إلى مشاركتها في فراش الزوجية امرأة يتزوجها زوجها.[٦٦]

من الطبيعي أن يجعل هذا السياق الاجتماعي الذي يربط قيمة المرأة ومستقبلها الزواجي بقدراتها الإنجابية، من الرغبة في الحصول على الولد عند الزوجات رغبة شديدة وقوية، وهما استحوذ على تفكيرهن؛ ولا غرو، فالتوجس من عدم إنجابهن، أو الخوف من إصابتهن بما يقلل من ذريتهن، دفعهن إلى سلك سبل متعددة، والتعلق بكل من توسمن فيه الصلاح أو ادعاه، من ذلك زيارة الأولياء، والأضرحة المعروفة بنتائجها المحمودة في هذا الأمر[٦٧]. فقد ظلت بعض المزارات والأضرحة إلى وقت قريب، مشهورة في الاعتقاد الشعبي، بفعاليتها في إزالة العقم والتخلص مما قد يعيق الحمل.[٦٨] وبالمثل دفعت الرغبة في الولد، وتأخر الحمل، ببعض الزوجات المتوجسات من العقم، إلى الالتجاء إلى المشتغلين بالسحر والتنجيم[٦٩]، والاستعانة بالتمائم والرقى والتعاويذ[٧٠]، أو الاستنجاد ببعض الوصفات العلاجية التي عادة ما كان ينصح بها لعلاج العقم[٧١]. وقد تمثلت هذه الوصفات، في تناول بعض الأشربة، وتجرع الأعشاب، وحرق البخور التي يعتقد في فعاليتها الشديدة في العلاج، وتحقيق المراد. أورد ابن هلال ضمن نوازله، أن على المرأة التي تأخر حملها، أن تأخذ "حبات الحرف"، و"سباط الملوك" فتيبسها، وتسحقها في مهراس، وتخلطها مع العسل، وتلعق منه أصبعا واحدا كل يوم.[٧٢] وبلغت الرغبة ببعضهن حدًا فقدن فيه السيطرة على سلوكاتهن، إذ لم يترددن في الوقوع في أيدي أدعياء العلاج الذين استغلوا وضعيتهن الحرجة للنيل منهن ومن أعراضهن، بإتباع حيل كثيرًا ما انطلت عليهن.[٧٣]

رابعًا: الرغبة في الولد الذكر وتمجيد الذكورة

بالقدر الذي اعتقد فيه مغاربة العصر المريني بقيمة الكثرة والعدد، والتمسك المستميت بثقافة الخصوبة والإكثار من النسل، فإنهم اعتقدوا اعتقادًا جازمًا بأهمية الذكر وفضلوه على الأنثى. فمُجدت خلال هذه المرحلة من تاريخ المغرب قيمة الذكورة والرجولة.[٧٤] ونستطيع أن نعثر على صدى هذا الاعتقاد، في شيوع عدد من العادات والإجراءات التي جرى الاعتقاد في أنها تزيد من حظوظ إنجاب الأولاد الذكور. وفي هذا السياق، أوصى أحمد زروق من يريد الولد الذكر بأن يأمر زوجته "بالنوم على شقها الأيمن عند فراغه"[٧٥]. النصيحة نفسها قدمها محمد النفزاوي للوزير محمد بن الونان الزواوي، حين قال له: "فإذا قضيت حاجتك وأردت النزول لا تقم قائما، ولكن أنزل عن يمينك برفق، فإن حملت المرأة من تلك الساعة يكون ذكرا إن شاء الله".[٧٦]

ولأن الرغبة في الولد الذكر كان طموحًا هيمن على فكر معظم الأزواج، فقد شاعت في مجموع مجالات الغرب الإسلامي الكثير من الإجراءات والممارسات التي كان الغرض منها التطلع إلى معرفة ما إذا كان جنس الجنين ذكرًا أم أنثى[٧٧]. في هذا السياق يحدثنا السقطي أن أهل الأندلس، وفي محاولة منهم للوصول إلى جنس الجنين، كانوا يعمدون إلى اعتماد مجموعة من الطرق، من ذلك "أن يقدر بخيط من وسط سرة المرأة إلى الفقارة المحاذية لها من ظهرها، ويعلم المكان بمداد، ويدار القياس إلى الجانب الثاني من الموضع إلى الموضع، فإن نقص الخيط من الجانب الأيمن عن العلامة، فهي حامل بذكر، وإن طال فهي حامل بأنثى والله أعلم بذلك"[٧٨]. ويخبرنا محمد النفزاوي من إفريقية، أن جنس المولود يتحدد من خلال مجموعة من العلامات التي تظهر بالمرأة، فإذا "بان لونها عند تبين حملها لم تتغير، وكان وجهها حسنا منيرًا، وقل الكلف من وجهها، فذلك علامة تدل على الذكر"[٧٩]. أما إذا ازدادت قبحًا، وفقدت جمالها وتغير لونها، فلا يمكن لمولودها أن يكون إلا بنتا.[٨٠]

ومن الوسائل الأخرى المعتمدة للتكهن بجنس الوليد المنتظر، والتي تكشف على أن هوس البحث عن المولود الذكر دائمًا ما كان يرافق الزوجين، اللجوء إلى بعض الصلحاء الذين اعتقدت العامة في صدق تنبؤاتهم[٨١]. فقد ورد ضمن نازلة من نوازل الفترة، سؤال "عن قوم يدعون الصلاح...، ويقولون نعلم ما في بطون النساء"[٨٢]. وذكرت إحدى الفتاوى المؤرخة سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م، أن رجلا من المنتسبين إلى أهل الصلاح كان يتحدث في حمل الحوامل، ويقول فلانة يزيد لها ذكر وفلانة ذات أنثى[٨٣]. وبالمثل، كان دور المنجمين، الذين ذاعت أفكارهم في الحقبة المدروسة[٨٤]، كبيرًا للاطلاع على جنس المولود. فقد غدا اتصال القمر بالمشتري وعطارد في عرف أهل المغرب، بحسب رواية لابن الخطيب[٨٥]، دالاً على أن المولود سيكون ذكرًا.

ولا تفوتنا الإشارة إلى تلك الروايات التي حاول من خلالها البعض إضفاء طابع الأسطورة والكرامة، على فترة ظهور الحمل الذكر عند بعض الأمهات؛ إذ نسجتها في نسق لا يختلف كثيرا عن تلك التي أحاطت بولادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، لتظهر انفراد المشاعر التي تميز المرأة أثناء الحمل بجنين ذكر، وأثناء مخاض ولادته.[٨٦] ومن النماذج على ذلك حالة يعقوب بن عبد الحق المريني، الذي روى أن أمه " رأت في منامها كأن القمر خرج من قبلها حتى صعد في السماء، وأشرق نوره الأرض". ولما قص أبوها الرؤية على الشيخ أبي عثمان الورياكلي، تنبأ بأن المولود سيكون سلطانًا[٨٧]. كما ورد في ترجمة أحمد زروق (ولد سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)، أن والدته رأت حين حملت به كأنها أعطيت شيئا من الذهب، ورأت جدته كأن الحج أخذه منها[٨٨]. في حين قال محمد بن أحمد الشريف الحسني، بأنه بشر بمولوديه عبد الله وعبد الرحمان في النوم.[٨٩]

وفي كل الأحوال فقد كانت الرغبة في الحصول على الولد الذكر قوية وبالخصوص عند الأمهات. فالطفل الذكر بالنسبة للزوجة يزيد من قيمتها المعنوية داخل الأسرة ومن حظوظ الاستفادة من الميراث العائلي[٩٠]، فضلاً عن أنه يرفع من شأنها ومكانتها عند الزوج ويضمن استقرارها الزواجي. فثمة حالات أقدم فيها بعض الأزواج على الطلاق، وعلى الزواج المتعدد أملاً في أن يرزقوا بأبناء ذكور، لأن كل مواليدهم من البنات.[٩١]

وتتجلى العقلية المفضلة للابن الذكر في سلوك الأسرة عند الولادة، ففي الوقت الذي تقل فيه استبشارة الأسرة بالمولود الأنثى[٩٢]، ترتفع الزغاريد احتفاء بالمولود الذكر، وتزداد حفاوة الاستقبال وضخامة الاحتفالات بولادته خاصة إذا كان باكورة الزواج[٩٣]. ويلاحظ أن جل رسائل التهنئة بالمولود الجديد ارتبط موضوع أشعارها بالمولود الذكر[٩٤]. وفي ذات الاتجاه فقد يحصل أن يتم إرضاعه أشهر زيادة على مدة إرضاع الأنثى.[٩٥]

ومن القرائن المؤكدة لمكانة الطفل الذكر، تلك الروايات التي تتحدث عن بعض الأسر خلال الحقبة المبحوث فيها، عانت من مسألة فقدان أولادها، واضطرارها إلى الاستعانة بالعديد من الطرق التي اعتقدت في نجاعتها للحد من هذا التلف الذي أصابها. من هذه الروايات نذكر أن محمد بن أحمد مرزوق وزوجته عائشة بنت أحمد بن الحسن المديوني، كانا من شأنهما ألا يعيش لهما ولد إلا نادرًا. ولما رزقا بمولود جديد، اختارا تغيير اسمه باسم محمد حتى يتعافى، باعتقادهم، من المرض الذي ألم به، والذي كاد أن يجعل مصيره مثل مصير سابقيه[٩٦]. الحالة نفسها تكررت مع والد علي بن قاسم الزقاق الترجيني، حيث اشتكى هو الآخر من موت أبنائه الذكور خاصة، "فدل أن يسكب زقا من زيت على من يتزيد من ذكر له يسخنه به ثم يتصدق به ففعل".[٩٧]

خَاتِمَةٌ

قصارى القول؛ إن الحياة الاجتماعية في عصر المرينيين تميزت بطغيان مجموعة من القيم والمعتقدات والأفكار التي جاءت انعكاسا أمينا لبنية ثقافية سائدة. فقد أسهمت أوضاع الحياة القاسية نتيجة طبيعة وسائل الإنتاج البسيطة، والوضع الطبيعي والمعاشي السائد القائم على الكفاف والقلة وعائدات الغزو، في قوة التأثير وكثافة الترسبات الذهنية التي خلفتها سيادة العقلية المشجعة على الإنجاب والمقدرة لخصوبة المرأة، في مختلف أشكال السلوك والقيم الأخلاقية والممارسات والعادات الجماعية والفردية في المغرب الأقصى خلال العصر المريني. والحاصل، فقد أبان التحليل أن الخصوبة والإكثار من النسل كانت من الحاجات الملحة، وقيمة من أهم القيم الموجبة للتقدير التي انفعل معها معظم مغاربة العصر المريني. وعلى هذا الأساس تدوولت في شأنها أشكال من السلوك والقواعد الأخلاقية، والتمثلات الرمزية التي وجهت مشاعر الناس واختياراتهم الاجتماعية.

الهَوامِشُ

(١) محماد لطيف، **الحياة الأسرية بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني ٦٦٨-٨٦٩هـ/ ١٢٦٩-١٤٦٥م**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م، ص. ١٠٨.

(٢) الماجري، **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**، المطبعة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٢٣م، ص، ٣٢١. التنبكتي، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص، ٢٢٥.

(٣) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص، ٢٨٥. **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص، ٢٣. ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٧، ص، ٢٢٥. الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤م، ج٣، ص، ٩.

(٤) ابن الخطيب، **ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، حققه ووضع مقدمته وحواشيه، محمد عبد الله عنان، الناشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج٢، ص، ٣٢٧.

(٥) "تسميه مسعود أودحيه بالعود". الزجالي، **ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام (أمثال العوام في الأندلس)**، تحقيق ودراسة، محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس، صدر عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ق٢، مثل رقم ١٨٣٧، ص، ٤٢٢.

(٦) حميد تيتاو، محماد لطيف، **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقبائل أيت عطا من خلال أمثالها – مساهمة في تدوين الأمثال الأمازيغية –**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣ م، صص، ٨٤، ١٧٨.

(٧) **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انحلت وبيان شناعتها وقبحها**، طبع على نفقة مصطفى أفندي فهمي الكتبي وشريكه، المطبعة العامرة الشريفة، ١٣٢٠هـ، ج٣، ص، ٣١.

(٨) الونشريسي، **المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية، الرباط، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج٣، ص، ٥.

(٩) ابن الحاج، **المدخل**، ج٢، ص، ٥٥، ٦٠. ج٣، ص، ٣١. الونشريسي، **مختصر أحكام البرزلي**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم: ٢١٩٨ د، ص، ٥٨٤. محمد النفزاوي، **الروض العاطر في نزهة الخاطر**، ضمن كتاب الجنس عند العرب، نصوص مختارة، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، كولونيا-ألمانيا، ١٩٩٧م، ص، ١٠٣.

(١٠) من ذلك قوله تعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» . **سورة الكهف**، الآية، ٤٦. وقوله أيضا: «وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِين»، **سورة نوح**، الآية، ١٢. ومن الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم امرأة تقدم ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجابا من النار، فقالت امرأة: واثنين، قال: واثنين). رواه النسائي وأبو داود والحاكم. **موسوعة الأحاديث النبوية الشريفة**. للمزيد من التفصيل، راجع : زهير حطب، **تطور بنى الأسرة العربية**، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٧٦م، ص، ١٢١.

(١١) ابن عبد الرؤوف، **رسالة في آداب الحسبة والمحتسب**، نشر ليفي بروفنسال، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص، ٧٩. المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ج٥، ص، ٦٠.

(١٢) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ج٢، ص، ٤٢٥. محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من الصلحاء بمدينة فاس**، ٣ أجزاء، طبعة حجرية، فاس، ١٣١٦هـ، ج٣، ص، ٣٠٢.

(١٣) **كتاب عمل من طب لمن حب**، طبع النص العربي مع بيان المصطلحات ومعجم الأسماء الطبية، ماريا كثيثيون فازكيز دي بينيتو، جامعة سلمنقة، ١٩٧٢م، ص، ٢٧٤.

(١٤) الونشريسي، **المعيار**، ج٣، ص، ٣٧٠.

(١٥) للمزيد من التوضيح، راجع: محمد فتحة، "معطيات عن تحديد النسل في المغرب خلال العصر الوسيط المتأخر انطلاقا من قولة لعبد الله العبدوسي في موضوع العزل"، **مجلة كنانيش**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، العدد الأول، ١٩٩٩م، ص، ٥٥.

(١٦) الملاحظة نفسها أوردها فيليب أرياس في تناوله لمسألة منع الحمل في تاريخ أوربا. أنظر : "تاريخ الذهنيات"، ضمن كتاب **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوكوف، ترجمة وتقديم، محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، صص، ٢٩٩- ٣٠٠.

(١٧) ابن هذيل، **عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة**، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم ٥٨١ د، ص، ٦٥. ابن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص، ٥٥.

(١٨) محمد أستيتو، **الفقر والفقراء في مغرب القرنين ١٦ و ١٧م**، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص، ٣٧٢.

(١٩) ابن الحاج، ج٣، ص، ٣١.

(٢٠) شارل أندريه جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس- الجزائر- المغرب الأقصى**، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، النشرة ٢، ١٩٨٣م، ج١، ص، ١٦٦. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/XIX م، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي [العامة- الخاصة] [الطبقة-المرتبة]**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ١٩٩٩-٢٠٠٠م، ص، ١٠٨، ١٥٧.

(٢١) **روضة التعريف بالحب الشريف**، عارضه بأصوله وعلق على حواشيه وقدم له، محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م، ج١، ص، ٣٩٨.

(٢٢) ابن خلدون، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص، ٩٦. يمكن ملاحظة ذلك، من خلال ما رافق الحياة البدوية من ضروب الغصب والتعدي: ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، صص، ٢٨٢، ٢٨٨. **الذخيرة السنية**، ص، ٣٦. ابن خلدون، **العبر**، ج٧، صص، ٢٢٤، ٢٢٦. الملزوزي، **نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك**، نشر عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، صص، ٦٨- ٦٩.

(٢٣) مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق، سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٧٩م، ص، ١٧. ابن خلدون، **المقدمة**، ص، ١١٤. **العبر**، ج٧، صص، ٦٨، ٧٤، ٢٢١- ٢٢٢.

(٢٤) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون تاريخ، مج١، ص، ٢٤٣. الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، معجم جغرافي، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص، ٦٠٥.

(٢٥) ابن خلدون، **المقدمة**، ص، ٢١١. الناصري، **الاستقصا**، ج٣، ص، ١٠٨.

(٢٦) إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، ص، ٢٥.

(٢٧) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ج١، ص، ٢٥٨. زهير حطب، **تطور بنى الأسرة العربية**، صص، ١٠٥، ١١٩، ١٢٠، ١٣٥. أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، (إينولتان ١٨٥٠- ١٩٢٠)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، أطروحات ورسائل ١، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص، ١٨٩.

(٢٨) ابن خلدون، **المقدمة**، ص، ١٠٤.

(٢٩) الناصري، **الاستقصا**، ج٣، ص، ١٣٤.

(٣٠) الونشريسي، **المعيار**، ج٣، ص، ٢٧٨.

(٣١) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، ٣١-٣٢.

(٣٢) المصدر نفسه، ص، ٣٢.

(٣٣) **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٦م، صص، ١١٧، ١٢٧.

(٣٤) محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس**، ج٢، ص، ٦٣.

(٣٥) **المدخل**، ج٢، ص، ٥٧.

(٣٦) ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن**، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم، محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص، ١٣١-١٣٢.

(٣٧) ابن عباد، **الرسائل الكبرى**، طبعت بتصحيح، أحمد بن محمد المهدي بن العباس بن صابر البوعزاوي، طبعة حجرية، ١٣٢٠هـ، ص، ١٥٧. ابن عسكر، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق، محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر، سلسلة التراجم، ط٢، مصورة بالأوفسيط، الرباط، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص، ١٠٦.

(٣٨) الماجري، **المنهاج الواضح**، ص، ٣٢٠.

(٣٩) **الرسائل الكبرى**، ص، ١٥٧.

(٤٠) المصدر نفسه، ص، ١٤٥.

(٤١) التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، ٣٥.

(٤٢) ابن عرضون، **مقنع المحتاج في آداب الأزواج**، مخطوط. المكتبة الوطنية، الرباط، رقم ١٠٢٦ ك، ص، ٣.

(٤٣) ابن تكلات، **إثمد العينينونزهة الناظرين في مناقب الأخوين**، تحقيق ودراسة، محمد رابطة الدين، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ١٩٨٦م، ص، ٢٥٠.

(٤٤) **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق، سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٢م، ص، ١٤٦.

(٤٥) مجهول، **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، صص، ٣٣، ٤٦. الصومعي، **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٦م، ص، ٢١٩.

(٤٦) ابن مرزوق، **المسند**، ص، ٢٣٠.

(٤٧) **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تقديم وتحقيق، السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٩م، ج٣، ص، ٢٣٦.

(٤٨) **نفح الطيب**، ج٦، ص، ١٨.

(٤٩) يمكن ملاحظة ذلك، من خلال بعض العادات المنتشرة في حفلات الزواج. الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، ج١، ص، ٢٥٦. محمد المختار السوسي، **المعسول**، طبع بمطبعة النجاح، الدار البيضاء، عام ١٣٧٠هـ/١٩٦٠م ، ج١، صص، ٣٢-٣٣.

(٥٠) راجع في هذا الصدد: محمد التجاني، **تحفة العروس ومتعة النفوس**، تحقيق، جليل العطية، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٢م، ص، ١٩٦. محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ١٠٣-١٠٤. ولعلها كتابات لا تشد عن اتجاه نظيراتها في المشرق الإسلامي: السيوطي، **كتاب الإيضاح في علم النكاح**، ص، ١٢٤. وكتاب **الرحمة في الطب والحكمة**، طبع ونشر، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، د.ت، ص، ٢٦-٢٧- ٢٨. بحيث أورد ما لا يقل عن أربعين طريقة لعلاج العقم. للتفصيل عن مضامين بعض هذه الكتابات، راجع : سمية نعمان جسوس، **بلا حشومة الجنسانية النسائية في المغرب**، ترجمة عبد الرحيم حزل، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٣م، ص، ٢٤٣.

(٥١) ورد في نوازل ابن رشد، أن زوجة اشتكت إعراض زوجها عنها منذ دخل بها، وقالت أنها تريد الفراق، لأنها " لا تستطيع الصبر عما يلحقه بها من الضرر، فيما يرغب النساء من أزواجهن". **المسائل**، تحقيق ودراسة، الحبيب التجكاني، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، مج١، ص، ١٨٥.

(٥٢) ابن غازي، **الكليات في المسائل الجارية عليها الأحكام**، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم: ١٧٢٩ د، (ضمن مجموع)، ص، ١٠٩. محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ٧٩-٨٢، ١٠٨.

(٥٣) لعل المطلع على بعض المصنفات، يلحظ مايقدمه مؤلفوها من وصفات عديدة، لمعالجة ما يصاب به الزوج أو الزوجة من عجز جنسي، أو من علل في أعضائهما التناسلية، لذا خصصوا أبواب فيما يقوي على الجماع، وباباً آخر فيما يزيد من حجمه، وبابا عن فروج النساء، وبابا يهتم بالعجز الجنسي، انظر: محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ٧٧، ٨٣، ١٠٣. مجهول، **كتاب في الطب**، مخطوط مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، رقم ١/١٦٩، ص، ٤٠. ابن عرضون، **مقنع المحتاج**، ص، ٢١٥ وما بعدها.

(٥٤) **النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية**، دراسة وتحقيق وتخريج، عبد المجيد خيالي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص، ٨٠.

(٥٥) **نزهة المشتاق**، مج١، ص، ١٠٤.

(٥٦) **جذوة الاقتباس**، ج١، ص، ٤٣.

(٥٧) **السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية**، طبع بمطبعة مصطفى البائي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٤١هـ، ص، ١٥٥.

(٥٨) **المنهاج الواضح**، ص، ٣٢١-٣٢٢.

(٥٩) ابن تكلات، **إثمد العينين**، ص، ٢٣٠. ابن عيشون، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق، زهراء النظام، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، السنة الجامعية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص، ٢١٢.

(٦٠) ابن عيشون، **الروض العطر**، ص، ٢٢٣-٢٢٤.

(٦١) ابن عسكر، **دوحة الناشر**، ص، ١١٤.

(٦٢) ابن عرضون، **مقنع المحتاج**، ص، ٣١٩. إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص، ٣٣.

(٦٣) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، صص، ٣١-٣٢. الماجري، **المنهاج الواضح**، ص، ٣٢١.

(٦٤) محماد لطيف، **الحياة الأسرية بالمغرب الأقصى**، ص، ٣٦٤.

(٦٥) الدرعي، **الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية**، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم ١٦٤٤د، (ضمن مجموع)، ص، ٩٨.

(٦٦) الونشريسي، **المعيار**، ج٥، ص، ١٢٧.

(٦٧) الأنصاري، **اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط٢، الرباط، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص، ٢٢. ابن عسكر، **دوحة الناشر**، ص، ١٠٦. محمد بن جعفر الكتاني، **سلوة الأنفاس**، ج٣، ص، ٩١.

(٦٨) سمية نعمان جسوس، **بلا حشومة**، ص، ١١٨.

(٦٩) ابن هيدور، **الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية**، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، ميكروفيلم رقم ٢٣٥١، (ض.م)، ص، ٢٣٨. ابن أبي الرجال، **شرح أرجوزة في الأحكام النجومية**، ص، ٤٣.

(٧٠) الونشريسي، **المعيار**، ج٢، ص، ٣٨٨. ج١١، ص، ١٦٦.

(٧١) محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ١٠٥.

(٧٢) ابن هلال، **الأجوبة**، طبعة حجرية، دون مكان الطبع، دون تاريخ، (نسخة خاصة)، ص، ١٨٣.

(٧٣) فهذه امرأة عاقر بحسب رواية لابن عرضون، قصدت أحد المعالجين ممن يتوسم فيه الخير والصلاح، فطلبت منه أن يعالجها، فقال لها: لابد من الكتابة في مواضع من بواطن جسدك فانزع ثيابك سوى السروال، ففعلت، فصار يستمتع بها. **مقنع المحتاج**، ص، ٢٨٠. كما ذكر أن امرأة أخرى عاقر قصدت أحد المعالجين، فقال لها: عندي مسألة

صحيحة للعاقر، ولكن لا يتأتى عملها لأن كاتبها يكتبها في ذكره ويجامعها به، فرغبت منه عملها. ص، ٢٨٠.

(٧٤) حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، سلسلة أبحاث ١، دجنبر ٢٠٠٩م، ص، ٤٣٢.

(٧٥) **النصيحة الكافية**، ص، ٧٨.

(٧٦) محمد النفزاوي، **الروض العاطر**، ص، ١١٢.

(٧٧) راود هذا الطموح بعض الناس منذ فترات سابقة من تاريخ المغرب، واستعملوا لأجل معرفة جنس الجنين مجموعة من الطرق المختلفة. عن بعضها، راجع: إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص، ٣٣.

(٧٨) **رسالة في الحسبة**، ص، ٥٢- ٥٣.

(٧٩) **الروض العاطر**، ص، ١١١. نقل ذلك كما هو واضح، عن السيوطي، **الرحمة في الطب والحكمة**، ص، ٢١٨.

(٨٠) إلى جانب علامات أخرى قال صاحب المصدر، إنه أخذها من أقوال أهل العلم فيما جربوه وصح عندهم. المصادر نفسها، الصفحات نفسها.

(٨١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص، ٢٥٩.

(٨٢) الونشريسي، **المعيار**، ج١١، ص، ١٦٦.

(٨٣) المصدر نفسه، ج٢، ص، ٣٨٨.

(□□) Ahmed Khaneboubi, Les premiers sultans mérinides1269-1331, Histoire politique et sociale, L'Harmattan, Paris, 1987, P. 189.

(٨٥) **نفاضة الجراب**، ص، ١٣١- ١٣٢. **ريحانة الكتاب**، ج٢، ص، ١٧٨.

(٨٦) تركي علي الربيعو، **العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية**، نشر المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م، ص، ١٦٢-١٦٦.

(٨٧) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، ٢٩٧.

(٨٨) مجهول، **التعريف بالشيخ أحمد البرنسي المعروف بزروق**، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم ٢١٠٠ د، (ضمن مجموع)، ص، ٢٧٩.

(٨٩) ابن مريم، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٦م، صص، ١١٧، ١٢٧.

(٩٠) قالت في هذا الصدد: "سميه مسعود، وادحيه بالعود". الزجالي، **أمثال العوام**، مثل رقم ١٨٣٧، ق ٢، ص، ٤٢٢. حميد تيتاو، محماد لطيف، **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقبائل أيت عطا**، ص، ١٥٩. مثل رقم: ٧٦٦.

(٩١) محماد لطيف، **الحياة الأسرية**، ص، ٣٦١.

(٩٢) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج١، ص، ٢٥٨.

(٩٣) ابن الحاج، **المدخل**، ج٣، ص، ٣٢. ابن الخطيب، **ريحانة الكتاب**، ج٢، ص، ١٧٧-١٧٨. روجيه لوتورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ترجمة نقولا زياده، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٧م، ص، ١٠٣.

(٩٤) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص، ٣٤.

(٩٥) سمية نعمان جسوس، ص، ٢٠.

(٩٦) **نيل الابتهاج**، التنبكتي، ص، ٥٠٨.

(٩٧) ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ج٢، ص، ٤٧٦.